من وسائل إعادة الأمن الخلقي

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٠٠٨/٣/٢١م

الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي تحتفل أمة الإسلام بذكراه، أثنى عليه ربنا تبارك وتعالى بثناء لم يُذكر لأحد من قبل حين قال له سبحانه: { وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ } [القلم: ٤]

وما يزال المسلمون يترنمون بذكر أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتغنون بعظمتها، وينشدون الشعر والقصيد في كمالاتها... في نفس الوقت الذي نعيش فيه مفارقة على مستوى الواقع، وعلى مستوى أوصاف أمتنا، وعلى مستوى الحركة السلوكية والفضائل الخلقية التي نتغنى بها في وصف سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ونشهد تراجعًا على مستوى أمتنا في تطبيقاتها الخلقية.

وكنت ألمحت في بعض المواطن أنَّ تعقيد الوسائل جعل الحل معقدًا، فمن البدهيات أننا حينما نريد معالجة مريضٍ ما نقوم بعزله عن بيئة المرض.

لكن كيف يمكن لنا أن نعزل، وهذا العزل أضحى أشبه بالمستحيل في عصر الاتصالات السلكية واللاسلكية، وفي عصر الإعلام الفضائي الذي ينقل من كل مكان إلى كل مكان؟

كيف يمكن لنا أن نحقق العزل للعلاج وقد أصبحت العلاقات الاجتماعية لا تنحصر - كما كانت في عصر البداوة أو في عصر التقاليد والعادات - في الأسرة والقرابة والعشيرة وأبناء الحارة... إنما تمددت لتكوّن معتقدًا جديدًا لم نعهده من قبل، وكلما خطا المجتمع خطوة نحو التطور المادي والمدني كلما ازداد تعقيد هذا المعقد الاجتماعي.

وقد كنت دعوت أصحاب العقول وأصحاب التربية وأصحاب العلم والدعوة والفكر إلى عمل جماعيٍّ ينتج حلولاً تتناسب مع مستوى هذا المُعقد.

لكن ومن باب المساهمة - حيث أصبح الأمر يشكل خطرًا شديدًا على هوية أمتنا - من باب المساهمة وتحفيز من كان لديه الاستعداد في هذه المساهمة أقول: العزل الذي يصلح لهذه المرحلة إنما هو العزل المعنويّ، فلم يعد من الممكن تحقيق العزل المادّيّ، فالعزل المطلوب إنما هو العزل المعنويّ.

وكنت أقتبس هذا المعنى كثيرًا من قول أحد كبار أهل المعرفة والتحقيق حين كان يدعو إلى دخول الزحام وأن لا يزاحموك في سرك.

وألمحت أيضًا إلى دخول أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بلاد الروم وبلاد الفرس و لم يتأثر أحد منهم بالمفاسد، وعاب القرآن وذم ذلك الذي قال: أخاف على نفسي من فتنة بنات بني الأصفر، فنـــزل القرآن الكريم يقول: { وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا } [التوبة: ٤٩] فكان تشخيص القرآن للفتنة أنهم يعيشون تلك الفتنة في قلوبهم وفي استعداداتهم الباطنة.

الفتنة إنما أن تكون مهيَّأ في الباطن لها، وإما أن تكون فوقها فتتجاوزها من غير أن تبالي بها لأنك الأقوى.

لماذا لم يفتن سحرة فرعون - بعد أن آمنوا - بكل ما لدى فرعون من زخرفٍ ومالٍ ونساءٍ وعطايا؟

ولماذا لم يفتن الصادقون والراسخون بالمفاتن، و لم تُثْنِهم في طريقهم مُرَهِّبات ولا مرغبات عن صراطهم؟

إنه العزل المعنوي الباطن.

وأقرأ قوله تعالى: { وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً، يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً، لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً } [لفرقان: ٢٧-٢٩]

وهذه الآية العامة لا تحصر الدلالة في عصر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، لأنها تتحدث حديثًا عامًّا عن كل ضال، بعد أن بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إذًا: **"مَعَ الرَّسُولِ"** لا يشترط في هذه المعية أن يكون صاحبها معاصرًا لحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيوية، لأن الرسول لم تنقطع رسالته ولن تختفي معانيه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، إنما هي باطنة كأنه صلى الله عليه وسلم حيٌّ بيننا.

رسول الله صلى الله عليه وسلم في مخاطبات القرآن التي توجهت إليه وفي كل ما بلغنا من توجيهاته يجعلنا نعيش في كل وقت حضورًا معه، ومع توجيهه، ومع أوصافه، ومع أفعاله، ومع منهجه...

وهكذا كانت دلالات الآية:

١- أن سلوك الطريق مع الرسول ليس مختصًّا بالجيل الذي عاصر حياته الدنيوية صلى الله عليه وسلم، بل هو عامٌّ لكل من تبعه إلى يوم القيامة، وكلُّ مؤمن له نصيب من سلوك الطريق مع الرسول صلى الله عليه وسلم.

٢- أن سبب ضلال الذي لم يسلك الطريق مع الرسول هو اتخاذ أصحاب السوء ومحبتهم لهم.

٣- أن الشيطان داعم لأصحاب السوء ومساعد لهم في إضلالهم.

٤- أن سبب الخذلان الذي يعيشه الإنسان إنما هو أصحاب السوء ومن ورائهم شياطينهم.

وأقول في عجالة، وأنا أقدم بعضًا من الوسائل ولا أزعم أنني أقدم حلولاً يمكن أن تكون كل شيء، لا أقدم ما هو على سبيل الحصر إنما هو على وجه المساهمة، أقول: نستطيع عل مستويات ثلاثة أن نفعل شيئًا من هذا العزل المعنوي المطلوب:

١- على مستوى تحسين الأحوال الباطنة.

٢- وعلى مستوى تحسين الذهنية المتفكرة.

٣- وعلى مستوى تحسين الأداء الأُسَريّ والاجتماعيّ.

ومن خلال هذه المستويات الثلاثة نستطيع أن نحقق شيئًا من العزل المعنويّ الذي يجعلنا فوق الفتنة وفوق الانحلال الخلقي، والذي يجعلنا نستطيع أن نتجاوز كل ما في العصر من معقدات:

١ - على مستوى تحسين الأحوال الباطنة:

١ - لا بد أن نتخذ قرارًا حازمًا بسلوك الطريق مع الرسول، أو خطوة لتحسين الأحوال الباطنة، وهذا القرار يتمثل بالإرادة التي صارت مشتتة في هذا الوقت، وصار الإنسان بين شعبها مشتتًا مفرقًا، والإرادة الصادقة والعزم يمكن أن يكون بلغتنا المعاصرة: اتخاذ القرار.

أي: حين نتخذ قرارًا حازمًا بسلوك الطريق مع الرسول، ويكون لنا في ذلك إرادةٌ صادقة قوية.

٢ - لا بد من آليات واضحة لتخليص القلب من محبة غير المنتسبين إلى الطريق مع الرسول، لأن ميل القلب إلى أولئك الذين لا يحبون السير في الطريق مع الرسول لا بد أن يصرف القلب عن إرادته تلك.

وعندما أقول: نخلص القلب من المحبة والميل لذلك الصنف المخالف، فإنني لا أعني المجاملة التي لا بد منها وهي واجبة، ولا أعني الاختلاط الذي فيه الحوار وفيه الدعوة وفيه ثبات الهوية، إنما أعني الحب والميل والركون، قال تعالى: { وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ } [هود: ١١٣]، وقال أيضًا: { لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [المجادلة: ٢٢].

ويساعد على هذا التخلُّص في هذه الآليات:

- **كثرة الذكر:** فذكر الله سبحانه وتعالى يجذب القلب إلى الله ورسوله، فلا بد من إكثار الذكر.

- **تلاوة القرآن:** أي التلاوة التفاعلية التي يعيش فيها الإنسان مع حقائق القرآن وأسراره ومعانيه، فإذا عاش في هذا الحال فإنه يجد بعد مدة من الوقت أن قلبه بدأ يتوجّه إلى الأنوار، وبدأ يتوجّه إلى الله، وبدأ يشمئز من كلِّ ما يُسخط الله سبحانه وتعالى، أي: بدأ يرتقي.

قال تعالى: { وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [آل عمران: ١٣٩] ولا ينحصر معناها في السيادة السياسية، إنما أنت الأعلى حين تستطيع أن تتجاوز الفتنة، فأنت الأعلى فوق الفتنة، لأن الفتنة لا يمكن أن تكون جاذبة لك.

وكان كبار أهل المعرفة يقولون: أَغْلِ ثمنَك أيها الإنسان، حتى لا يقدر على شرائك غير الله:

{ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ } [التوبة: ١١١]

فإذا كان الله يشتري فلا يمكن أن تُقدّم نفسك لغيره، وغيرُه لا يستطيع أن يدفع الثمن الذي يدفعه الله، ولا يستطيع أن يكون منافسًا في الشراء لله، فأَغْلِ نفسك ليكون كلُّ ما سوى الله عاجزًا عن شرائك.

وهكذا تستطيع أن تكون الأعلى والأغلى.

٣- الترابط القويُّ الشعوري مع من توجّه بقلبه إلى الله تبارك وتعالى ومع من أحب الله ورسوله: وهذا التحابب في الله يقوّي المجانسة، فكما تخلّص قلبك من الميل إلى غير المجانِس، توجّه قلبك وارتبط ارتباطًا شعوريًّا بمحبةٍ صادقةٍ مع من توجّه قلبه إلى الله سبحانه وتعالى.

وهذا التفاعل مع دين الله سوف يتعاضد فيك وفيه، فيتقوّى هذا التفاعل فيكما أو فيكم كلما كثرت أو تعددت هذه الروابط، أي: روابط الحب في الله: **(الْمُتَحَابُّونَ فِي جَلالِي لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمْ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ)**.

قال تعالى: { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً } [الأحزاب: ٢٣]

مثلُ هذا الصنف الذي ما بدّل ارتبط بقلبك معه ارتباطَ تحابُب، وارتباطَ تآخٍ في الله، وليكن هذا التآخي وهذه الأخوة في الله مترابطة من خلال الحب في الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } [التوبة: ١١٩]

٢ - على مستوى تحسين الذهنية المتفكرة: أقدم نصيحتين في هذه المساهمة المتواضعة:

١ - نستطيع أن نُقلل التعرّض لسيل الإعلام الفضائي داخل الأسرة: وذلك حين نملأ الفراغ بعروض مرئية انتقائية باستخدامات أجهزة متطورة، كالفيديو وغيرها...

أي: عندما نُقدّم البديل.

نستطيع من خلال إيجاد هذا البديل - وهو موجود - إزاحةَ غير المناسب، وما أكثر ما هو موجود الآن، ونستطيع من خلاله عبر هذا التنوّع أن نضع بديلاً.

وأصبح جزءًا مهمًّا أن يكون الإنسان مطلعًا على مرئيٍّ، وأن يكون مطلعًا على مسموعٍ، وأن يكون مطلعًا على مقروء... حتى يتناسب مع أهل عصره، وهكذا نستطيع إزاحة غير المناسب بإيجاد انتقائيٍّ مناسب.

لذلك: كم أتمنى أن يكون هناك فِرَقُ عملٍ ذاتُ سوية خُلُقية تستطيع اجتزاء المفيد لتقدمه، وهو عمل جليل.

عندما يوجد صنف لا تؤثِّر الفتنة فيه، فيجتزئ المفيد ثم يُقدّمه في أقراص مدمجة أو غيرها للناس، ليقول لهم: هذا مما لا يضر.

إنه عمل مفيد دعوي، يمكن أن يقدّم شيئًا نافعًا في هذا العزل المعنوي.

فالنصيحة الأولى إذًا: إبدال هذا السيل الفضائي العشوائي وجعله انتقائيًّا، من خلال إنجاز عمل يتشارك فيه أصحاب الفهم وأصحاب الأخلاق.

٢ - أن نُعيد الاهتمام العام بالقراءة والمطالعة: فقد أصبحت القراءة شيئًا نادرًا، وأصبح الناس لا يقرؤون، وأصبح المرئي بديلاً كاملاً، ولا ينبغي أن نسمح بذهاب ذلك التوازن، حينما يزول هذا التوازن ولا نُحصّل من القراءة شيئًا، فلابد من القراءة.

والقراءة إما أن تكون في كتاب، وإما أن تكون عبر الوسائل الحديثة، كالقراءة من الأقراص المدمجة التي تجتمع فيها مكتبات كبيرة، فالأسلوب لا يهم إنما لا بد من القراءة، ولا ينبغي أن نتوقّف عند المرئي، ومهما تطورت الوسائل يبقى للكتاب خصوصيته، وأنت تُقلّب صفحاته لتصل إلى مُرادك تجد في الطريق من المنافع شيئًا كثيرًا.

لابد من خطة جادة من أجل أن نعيد الناس إلى القراءة، وأن نعيد شبابنا، وأن نعيد من يعتقد أن توجيهنا نافع له، ولابد أن نستخدم ذلك من أجل أن نعيد الناس إلى هذا الأمر المفيد الذي قلّ وجوده في أوساطنا الثقافية اليوم.

أول آية نـــزلت: { اِقْرَأْ } [العلق: ١] ونحن لا نقرأ.

٣ - على مستوى تحسين الأداء الأسري والاجتماعي: ومن أجل أن نساعد في هذا العزل المعنوي:

١ - علينا أن نهتم اهتمامًا تربويًّا شديدًا داخل الأسرة في ملاحظة صحبة كل فرد من أفراد الأسرة: فالأم لها صحبة، والأب له صحبة، والأولاد لهم صحبة... وحينما يدخل الفساد من خلال أي فرد من أفراد الأسرة لابد وأنه سوف يسري، فحينما يدخل هذا الفساد إلى أحد الأولاد سيؤثر على إخوته، وحينما يدخل من خلال الأم، أو من خلال البنت، أو من خلال الأب... فإن دخوله إلى الأسرة سوف يؤثّر على أفراد الأسرة، وحينما نعتبر أن صحبة كل فرد من أفراد الأسرة مهمة إلى درجة كبيرة، فكما أننا نعزل الأسرة كلها من الداء الجرثومي الوبائي الساري، كذلك علينا أن ننظر إلى الوباء الخُلُقي، لأن هذا الوباء الخُلُقي حين يدخل إلى فرد واحد في الأسرة، فإنه سيؤثّر على بعض أفرادها، مهما حاولت التحصين، فالتأثير من داخل الأسرة قوي جدًّا، لأن المعايشة طويلة، والمعايشة الطويلة تؤدي إلى سريان الأخلاق الفاسدة من فرد إلى فرد، ويسري هذا الوباء في الأسرة.

٢ - لا بد من اجتهاد الأبوين لإظهار التوافقية في الأسرة: أقول: إظهار التوافقية، حتى ولو لم تكن هذه التوافقية موجودة، فقد لا تكون التوافقية موجودة بين الأبوين، لكن يجب إظهارها ولو كان ذلك من باب التكلُّف، فهي مسؤولية تربوية، لأن عدم وجود ذلك في مشهد الأسرة يؤدي إلى عُقُد نفسية كثيرة، ويؤدي إلى شذوذات كثيرة، وهذا الإظهار للتوافقية يقتضي شعورًا من الأبوين بالمسؤولية، ويقتضي وعيًا، وإذا لم يكن

هذا الوعي موجودًا، وإذا لم يكن هذا الشعور بالمسؤولية موجودًا، لا يمكن أن يتحقق ذلك، وتبقى النـــزعات النفسية هي الحاكمة، ولا يبالي الأب أو الأم بإظهار عدم التوافقية، وهذا خطر شديد داخل الأسرة.

٣- أن نُجمّع الهوايات المقبولة خُلُقيًّا وشرعيًّا: ونضم بعضها إلى بعض بين الشباب والمراهقين، ليكون لهم في ذلك استرواحٌ بالمباح، خارج أُطُر الواجبات المناطة بهم علميًّا وعمليًّا، فقد أغفلنا هذا الجانب إغفالاً كبيرًا.

علينا أن نلاحظ الهوايات المقبولة خُلُقيًّا، أي المباحة، ثم نُشجّع ضم بعضها إلى بعض في مَنْ تجانست أعمارهم.

هذه مسؤولية تربوية علينا أن نلاحظها، لأنها تُشكِّل نوعًا من أنواع العزل المعنوي، فلا ينبغي أن نقوم بالعزل في إطار الواجب فقط، بل علينا أن نقوم بهذا العزل المعنوي فيما يجذب النفوس، وفيما فيه راحة للنفوس، لاسيما في الناشئة، ولاسيما في المراهقين والشباب الذين هم في مُبتدى شبابهم.

عندما لا نترك لهم مساحة المُباح الذي فيه الماتِع، والذي فيه الجاذِب، والذي فيه ما يسُرُّ النفس ولا يضر بالأخلاق... عندما لا نعتني بهذا الجانب، فإننا نترك المجال من أجل أن يخرج هذا الجيل وهذه الناشئة إلى مساحات موبوءة لتحقيق هواياتهم، فلا يجدون في البيئة النظيفة هواياتهم، فيحققون هذه الهوايات الموجودة في بيئات غير نظيفة، فيسري الوباء إليهم، ثم يسري إلى أُسَرِهم، ثم يسري إلى مجتمعهم.

هذه نقاط علاَّم ومساهمات، وكما قُلت: لا أقول إنها المشروع كله، إنما هي بعض مساهمات في المشروع، لأن هذا المشروع ينبغي أن يتبنّاه كل أصحاب الدعوة والفِكر والعِلم والتربية... ليكون مشروعنا، الذي من خلاله نعلن انتماءنا إلى صاحب الخُلُق العظيم وصاحب الذكرى عليه الصلاة والسلام، ولا يكفي أن نُظهر أعلامًا ملوّنة، إنما ينبغي أن نقوم بمشروع، وعندما لا يوجد هذا المشروع، فإن ما يُسمى باحتفالات بهذه الذكرى لن تُشكِّل إلا نـــزوة عاطفة، ولن تُشكِّل إلا دغدغة مشاعر.

نحن نحتاج إلى مشروعٍ جادٍّ يقوم فيه جميعنا بأدائه، حتى نوقف هذا الانحدار، ونحن ننحدر في أخلاقنا إلى الهاوية.

إذا لم ننقذ أمتنا، ومجتمعنا، ومدينتنا... من هذا الانحدار الذي يتنامى يومًا بعد يوم، فإننا سنجد أنفسنا في لحظة من اللحظات عاجزين عن إيقاف هذا السيل.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يردّنا إلى دينه ردًّا جميلاً، وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.